# الفصل الثانى

## عمل الرسول ﷺ اجتهادًا

فى الفصل السابق ذكرنا أمثلة من اجتهاده ﷺ فى صور قولية، والآن نذكر أمثلة أخرى لاجتهاده عليه السلام لها الطابع العملى. وبذا تتأكد إنسانيته فيما خرج عن دائرة الرسالة والتبليغ.

وكما رأينا فى الصور السابقة لاجتهاده عليه السلام من إقرار الله سبحانه وتعالى لما رأى ﷺ أو عدم إقراره لذلك سنرى هنا أيضًا نفس هذا الحال مما يدل دلالة واضحة على أن الذى بدا من الرسول الكريم كان له خاصة كإنسان، ولم يصدر عنه كموحًى إليه.

* * *

١ ـ أخذه ﷺ الفداء من أسرى بدر؛ إذ يروى ابن أبى شيبة والترمذى وحسّنه، وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود قال: لما كان يوم بدر جىء بالأسارى فقال أبو بكر، يا رسول الله! قومك وأهلك، استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم، وقال عمر ابن الخطاب: يا رسول الله! كذبوك وأخرجوك وقاتلوك، قدّمهم فاضرب أعناقهم. وقال عبد الله بن رواحة: انظر واديًا كثير الحطب فأضرمه عليهم نارًا، فقال العباس ـ وهو يسمع ما يقول ـ قطعت رحمك، فدخل النبى ﷺ ولم يرد عليهم شيئًا، فقال أناس: يأخذ بقول أبى بكر، وقال أناس: يأخذ برأى عمر، فخرج رسول الله ﷺ فقال: «إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم

عليه السلام، قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2]، ومثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام، إذ قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾[3]، ومثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام، إذ قال: ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾[4]، ثم قال ﷺ: أنتم عالة[5] فلا ينفلتن أحد من الأسرى إلا بفداء أو ضرب عنق».

٢ ـ فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ...﴾ ـ إلى قوله: ـ ﴿عَظِيمٌ﴾[6].

ويروى أحمد[7] ومسلم من حديث ابن عباس عن عمر ابن الخطاب ـ فى نفس الموضوع ـ قال: لما أسر الأسارى ـ يعنى يوم بدر ـ قال ﷺ لأبى بكر وعمر: «ما ترون فى هؤلاء الأسارى؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله! هم بنو العم والعشيرة أرى أن نأخذ منهم فدية، فتكون قوة لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا ابن الخطاب؟ فقال: لا والله لا أرى الذى رأى أبو بكر ولكنى أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها[8]، فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت. فلما كان الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدان يبكيان، قلت: يا رسول الله! أخبرنى من أى شىء تبكى أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت، فقال ﷺ: «أبكى للذى عرض لأصحابى من أخذهم الفداء، ولقد

---

(١) إبراهيم: ٣٦.

(٢) المائدة: ١١٨.

(٣) يونس: ٨٨.

(٤) نوح: ٢٦.

(٥) أى فقراء فى حاجة إلى مال الفداء.

(٦) الأنفال ٦٧ و ٦٨، وسيأتى شرحهما.

(٧) ورواية أحمد أكثر تفصيلاً.

(٨) صناديدها أى صناديد قريش وهم رؤساؤها.

عرض علىّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة ـ لشجرة قريبة منه ﷺ ـ، فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ...﴾ إلى آخر الآيتين»[1].

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمر ـ فيه أيضًا ـ قال: اختلف الناس فى أسارى بدر، فاستشار ﷺ كبار أصحابه، فأخذ ﷺ بقول أبى بكر، ففاداهم.

فأنزل الله تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، فقال ﷺ: «إنْ كاد ليمسنا فى خلاف ابن الخطاب عذاب عظيم، ولو نزل العذاب ما أفلت إلا عمر». وأخرج ابن جرير عن أبى زيد قال: لم يكن من المؤمنين أحد ممن نُصِر إلا أحبَّ الغنائم إلا عمر بن الخطاب جعل لا يلقى أسيرًا إلا ضرب عنقه، وقال: يا رسول الله: ما لنا وللغنائم؟ نحن قوم نجاهد فى دين الله حتى يعبد الله فقال ﷺ «لو عذبنا فى هذا الأمر يا عمر ما نجا غيرك».

* * *

١ ـ عبوسه ﷺ فى وجه ابن أم مكتوم الأعمى على نحو ما ورد فى قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

قال الحافظ ابن حجر: لم يختلف السلف فى أن فاعل «عبس» هو النبى ﷺ.

وأخرج الترمذى والحاكم وابن حبان عن عائشة قالت: نزلت فى ابن أم مكتوم الأعمى، قال يا رسول الله أرشدنى! وعند النبى ﷺ ناس من وجوه المشركين منهم أبو جهل وعتبة بن ربيعة وغيرهما ـ فجعل النبى ﷺ يعرض عن ابن أم مكتوم، ويقبل على غيره.

---

(١) وقال ابن جرير فى معنى الآية: «الأسر» فى كلام العرب معناه الحبس فالمعنى: ما كان لنبى أن يحتبس كافرًا قدر عليه وصار فى يده من عبدة الأوثان للفداء أو المن، فالله سبحانه وتعالى يعرف نبيه أن قتل المشركين الذين أسرهم يوم بدر وفاداهم كان أولى بالصواب من أخذ الفدية منهم وإطلاقهم. ومعنى ﴿يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ أى يعظم شأنه ويغلظ بأن تتم له القوة والغلب فلا يكون اتخاذه الأسرى سببًا لضعفه أو قوة أعدائه. قال الواحدى: الإثخان فى كل شىء عبارة عن قوته وشدته، يقال: قد أثخنه المرض إذا اشتد عليه، وكذلك أثخنته الجراح، والثخانة الغلظة، فكل شىء غليظ فهو ثخين.

٢ ـ فنزلت: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ۝٤ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾.

قال صاحب المنار[١] فى ذلك: اجتهد ﷺ فى الإعراض عن الأعمى عندما جاءه وهو مشغول بدعوة أكابر قريش إلى الإسلام، وقد لاحت له بارقة رجاء فى إيمانهم بتحدثهم معه، فعلم ﷺ أن إقباله على الأعمى قد ينفرهم ويقطع عليه طريق دعوته، وقد كان يرجو بإيمانهم انتشار الإسلام فى جميع العرب، ولم يكن يعلم حينئذ أن سنة الله فى البشر أن يكون أول من يتبع الأنبياء والمصلحين فقراء الأمم وأوساطهم، دون الأكابر المجرمين المترفين الذين يرون فى اتباع غيرهم ضعة بذهاب رياستهم.

وقال الآلوسى أيضًا فى تفسير سورة (عبس):

جاء ابن أم مكتوم[٢] إلى النبى ﷺ وعنده صناديد قريش يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم، فقال: يا رسول الله علمنى مما علمك الله، وكرر ذلك، ولم يعلم تشاغله ﷺ بالقوم، فكره ﷺ قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه فنزلت: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ...﴾ إلخ. فكان ﷺ بعد ذلك يكرمه ويقول إذا رآه: مرحبًا بمن عاتبنى فيه ربى، ويقول: هل لك من حاجة[٣]؟.

---

(١) عند شرح قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾.

(٢) وابن أم مكتوم هو ابن خال خديجة أم المؤمنين، واسمه عمرو بن قيس القرشى، وأم مكتوم كنية أمه، واسمها عاتكة بنت عبد الله المخزومية، وكان أعمى وعمى بعد نور. وقيل ولد أعمى ولذا قيل لأمه أم مكتوم. أسلم قديمًا بمكة وكان من المهاجرين الأولين. هاجر إلى المدينة قبل هجرته ﷺ إليها. والمشهور أن اسمه عبد الله وسبب خفاء اسمه هو شهرته بكنيته (ابن أم مكتوم).

(٣) قال الآلوسى بعد ذلك: عبر فى ﴿عَبَسَ﴾ بضمير الغيبة ثم خاطب فى ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ قيل إجلالا له ﷺ لإيهام أن من صدر عنه العبوس غيره ـ ﷺ ـ لأن من شأنه ألا يصدر عنه مثل ذلك، ثم خاطبه إيناسًا بعد إيحاش، وإقبالا بعد إعراض. ثم قال أيضًا وقيل إن الغيبة أولا =

**• سوقه ﷺ الهدى، وتمنيه أن لم يكن ساقه**

١ ـ روى البخارى عن جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ أهل وأصحابه بالحج وليس مع أحد منهم هدى غير النبى ﷺ وطلحة بن أبى رباح، وفى رواية أحمد ومسلم: غير النبى ﷺ وأبى بكر وعمر وذى اليسار، وأن النبى ﷺ أذن لأصحابه أن يجعلوها عمرة. يطوفوا ثم يقصروا ويحلوا إلا من معه الهدى. فقالوا: أننطلق إلى منى وذكر أحدنا يقطر[1]؟ فبلغ النبى ﷺ.

٢ ـ فقال: «لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما أهديت ولولا أن معى الهدى لأحللت».

وروى أحمد وابن ماجه عن البراء بن عازب قال: خرج رسول الله ﷺ وخرجنا معه فأحرمنا بالحج، فلما قدمنا مكة قال: «اجعلوا حجكم عمرة»، قال: فقال الناس يا رسول الله!: قد أحرمنا بالحج فكيف نجعلها عمرة؟. قال: «انظروا! ما آمركم به فافعلوا» فردوا عليه القول، ثم زادوا: أندخل البيت ومذاكيرنا تقطر منيًا؟. فغضب ﷺ، ثم انطلق حتى دخل على عائشة وهو غضبان، فرأت الغضب فى وجهه، فقالت: من أغضبك أغضبه الله، قال ﷺ: «وما لى لا أغضب وأنا آمر بالأمر فلا أتبع».

وقد صح فى الأحاديث أنهم بعد ذلك فعلوا ما أمرهم ﷺ به وتحلل كل من لم يكن معه هدى.

---

= والخطاب ثانيًا لزيادة الإنكار، وذلك كمن يشكو إلى الناس رجلا ثم يقبل على هذا الرجل إذا اشتدت النكاية مواجهًا باللوم وإلزام الحجة. وفى ذكر ابن أم مكتوم (بالأعمى) دون ذكر اسمه إشعار بعذره فى الإقدام على قطع الكلام، ولأنه وصف يناسب الإقبال عليه لا الإعراض عنه، ففيه لوم آخر.

﴿كَلَّا﴾ قال النسفى معناها ردع وزجر أى لا تعد لمثل ذلك ﴿إِنَّهَا﴾ أى هذه الآيات وما نزلت بسببه ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ أى موعظة يجب الاتعاظ بها والعمل بموجبها.

روى ابن جرير عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ بعد أن قضى نجواه مع المشركين وذهب إلى أهله نزلت الآيات. وفى بعض الآثار أنه ﷺ ما عبس بعد ذلك فى وجه فقير، ولا تصدى لغنى لغناه. فتأدب الناس بعد ذلك أدبًا حسنًا.

(١) استبشعوا أن يتحللوا التحلل الذى يبيح لهم النساء وغيرها.

### • دخوله ﷺ فى جوف الكعبة ثم تأمله لذلك[1]

١ ـ روى أحمد فى مسنده والترمذى وأبو داود وابن ماجه عن عائشة قالت: خرج رسول الله ﷺ من عندى وهو قرير العين، طيب النفس.

٢ ـ ثم رجع إلىَّ وهو حزين القلب، فقلت: يا رسول الله! خرجت من عندى وأنت كذا وكذا، فقال: «إنى دخلت الكعبة ووددت أنى لم أكن فعلت، إنى أخاف أن أكون قد أتعبت أمتى من بعدى».

* * *

### • إقراره ﷺ كتابة شروط الصلح مع قائدى غطفان يوم الخندق[2]

روى ابن كثير فى تاريخه[3]، قال ابن إسحاق: لما اشتد البلاء على الناس بالحصار الذى مكث نحو شهر، بعث ﷺ إلى عيينة بن حصن والحارث بن عوف المرى وهما قائدا غطفان[4] وأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه، فجرى بينه وبينهم الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح[5] فلما أراد ﷺ أن يفعل ذلك. بعث إلى السعدين ـ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ـ فذكر لهما ذلك واستشارهما فيه. فقالا: يا رسول الله! أمرًا تحبه فنصنعه، أم شيئًا أمرك الله به لابد لنا من العمل به، أم شيئًا تصنعه لنا؟

١ ـ فقال ﷺ: «بل شىء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب رمتكم عن قوس واحد وكالبوكم[6] من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم

---

(١) فى نيل الأوطار جزء ٥ ص١٦٦.

(٢) وإذا نظر إلى ما حصل منه ﷺ من الكلام صح وضع هذا البحث فى فصل اجتهاده ﷺ بالقول المتقدم ذكره.

(٣) جزء ٤ ص١٠٤.

(٤) من القبائل الكبيرة التى كانت تقيم فى منازلها شرقى المدينة على مسافة منها.

(٥) أى إمضاء الشرط وتوقيعه.

(٦) كالبه مكالبة: أظهر عداوته ومناصبته العداء وجاهره به.

من شوكتهم إلى أمرٍ ما». فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله! قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا ثمرة واحدة إلا قِرًى أو بيعا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟، ما لنا بهذا من حاجة! والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

٢ ـ فقال ﷺ: «أنت وذاك». فتناول سعد الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليجهدوا أنفسهم.

* * *

obeikandl.com